

راعية هاتور

صعدنا إذن إلى ذهبية صديقنا الخليل ، ثم أدركنا السيدات والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس إليها . وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه . وتلقى الخليل الفاتنة وأصحابها باسماً قرير العين ، وتقدمهم إلى أماكن وثيرة أعدت على ظهر السابحة . وأدبرت طرفي فيما حولي فألفيت مقصفاً بلغ من الكمال أن كان بشيراً بليلة قَصَفٍ تثير في النفس أحلى المنى . وأخذنا من السيدات والسادة مجلساً كمجلسنا منهم في الفندق ، ثم كنا معهم أقل كلفة بعد ما قدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم . وسألت الفاتنة صديقنا الأشيب باسمه : هل نسي من تاريخ الآشوريين حديثاً أو خبراً . وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أباً عن جد حتى لا يتميز الإفرنج عنهم في قليل ولا كثير ، وحتى صارت عربيتهم إلى العجمة أو كادت . وبيننا نحن نتحدث أقبل علينا آخرون صعدوا من زورق ، وآخرون جاءوا من ناحية الشاطئ . ومع هؤلاء جاءت جماعة يحمل أحدهم قيثارة والآخر رقا والثالث عوداً والرابع كمنجا . وعرفنا في العواد مغنياً رقيقاً تعرفه مجامع الأصدقاء ولا يعرف المحافل العامة . وفي أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة ودل ، هن الساقيات الراقصات المحييات في لجة القمر وفوق لجة الماء خيالات عذارى البحار . ولما تكتمل الساعة حتى كانت الذهبية في عالم يموج بالرجال والنساء تغمرهم جميعاً غلالة رقيقة من ضياء فضي وهواء عذب يحمل معه قرأ . وفي مثل هذا العالم يتسرب إلى النفس إحساس الرضا والمسرة ، وتجري في العروق

آمال حلوة مبهمه ، ويستشعر الإنسان بما سيكون من أسباب الطرب والنعم . ويزيد في هذه الأحاسيس والآمال والمشاعر ما يكون بين الجمع من تبادل ابتسامات وتحيات ونكات . والحق أنك كنت ترى الأشيء قد ملكه كل شبابه ، فضحكت عيناه واقتَر ثغره ونضح بالبشر محياه ، ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها إلا لترتد إلى قرارة نفسه تزيده ذوقاً لسعادته ونعيمه . أما صديقنا الشاب فكان لا يستقر في مكان ، بل كان دائم الانتقال يحيى من عرف ويقدم نفسه لمن لم يعرف ، ويتبرع بأجمل الثناء لكل ذات دل وسنى . وأما نجى أبيس فجلس إلى أصحابنا السيدات والسادة يسمرون . وفيما هم في سمرهم دلف إليهم الخليل يكرر ما يتوجه به لكل زائريه من شكر ومديح . قال صاحب السيدات والسادة محدثاً الخليل ومشيراً إلى نجى أبيس :

— لقد كان صاحبنا وإخوانه يتحدثون في سميراميس بحديث آلهة آشور وآلهة مصر الفراعنة . فليتنا عرفنا شيئاً من أمر حديثهم قبل اليوم ، فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية ، أو ليلتنا يتاح لنا ذلك في وقت قريب .
قال الخليل :

— ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية ؟ إن لدينا في هذه الذهبية من العدة ما يجعل منها إن شئتم معبد الكرنك ، أو إن شئتم قصر الفرعون ، أو ما تشاءون من صور حياة آبائنا الأقدمين . وبين أولئك الفتيات اللاتي حضرن من تمت بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها وبكل ما فيها إلى عباد آمون بأمتن نسب . وإليها يرجع الفضل في عدة الذهبية ، كما يرجع إليها الفضل في غرام تأصل في نفسى بكل حياتنا المصرية . وسترون أنا لن نجد نصباً في إعداد ذهبيتنا إلا ما يجد معد المسارح في تهيتها لرواية جديدة .

قال الخليل هذا وأجال بصره في الحاضرين حتى استقر في ناحية ،
ثم نادى :

- إلى يا راعية هاتور .

- لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين ! هل لنا في ليلة فرعونية ؟
وكأنما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى ؛ إذ أقبلت إلينا تشق موج
الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل وحرور وذات قسامة تعيد إلى النفس
صورة الفرعونة نفرتيتي ورأسها الساحر . وألقى نداء الخليل وجواب الفتاة
وإقبالها صمماً خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية راعية هاتور
في نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب نقاد من النساء . واستقبلت الفتاة
القمر في طريقها إلينا ؛ فكانت أشعة عاشق السماوات هالة زادت ابنة
الفراعنة رقة وسحراً . وتلفت الأشيبي إلى ناحيتها مع من تلفتوا ، ودارت
حديقته معها في بطاء دل على ذوقه جمالها . وأدبرت ناظري لمحة فإذا فاتنة
سميراميس تحدج الأشيبي والراعية ، وكأنما دب من الغيرة إلى نفسها
ما دعاها إلى أن تلتفت غيرها عن هذا المفتون بها ، حتى لتخشى أن تفتنه
عنها . والصمت مخيم ، والفتاة تقبل ، والأعين مشدودة إليها ، والخليل
يفكر في الليلة الفرعونية ، ويكاد ذلك يطول لولا أن بدأت الفتيات والنساء
حديثهن وتهاتفهن كأشهى ما يستطعن ليصرفن الأنظار من جديد إليهن ،
ولكى لا يحسب أحد من الرجال أنهن أقل من تلك الراعية سلطاناً .
قالت إحداهن :

ما أعظم سرور الراعية بدعوة الخليل لليلة الفرعونية ! فهى لا تتقن
رقصاً كالذى تقوم به في دورها هذا . وأكبر الحظ في إتقانها إياه أن
ملابسه تخلع عليها شيئاً من الجمال .
وأجابت جارة لها :

- يجب أن نحمد للخليل على كل حال . فالضيف أسير الحلّى .
وأردفت كل واحدة عبارتها بابتسامة تجلت خلالها ثناياها الحلوة العذاب
فأمتعت النظر ، كما أمتع صوتها السمع ، واستعاد هذا وذاك التفات من
حولهما ، كما استعادت غيرهما التفات من حولهن .

وتداول الخليل والراعية وجيرانهما فيما يصنعون ، ونادى هو بالخدم
وسار معهم خلفها إلى الطابق الأسفل ، ثم إذا بهم يصعدون من جديد وإذا
ستور تمد ، وإذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعوني مشيد ، وترى خلال جدر
هذا القصر عمداً تذهب إلى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد الكرنك من
ناحية ، كما ظل يطل من الناحية الأخرى على النيل ورياضه النضرة . ودعانا
الخليل أن نهبط وراءه ، وأشار إلينا جميعاً أن ندخل إلى غرف الذهبية
كى يلبس كل منا الرداء الفرعوني الذى يصادفه . وعدنا إلى القصر المطل على
الكرنك ، فإذا الحاضر الذى عرفنا يختفى ، وإذا عصر سلف يبعث ،
وإذا الحفدة تتقمصهم أرواح الأجداد وإن ظلوا فى ريعان الفتوة وإهاب
الشباب . وجلسنا إلى موائد ألقى عليها بنسج العصور الغابرة أيضاً .
ومدت عليها ألوان الشراب فى أباريق من فضة . وبقي صدر المكان خالياً
تخطر فيه أوانس زانتين راعية هاتور وقد اتشحت بثوب أبيض انعقدت
أطرافه بين ثدييها فى صورة الوردة ، وظل بادياً من خلاله تخطيط جسمها ،
ولبست على رأسها شارة إيزيس قرص الشمس مقتعداً قرنى هاتور ،
وأمسكت بيدها مفتاح الحياة . واحتدت حذاء راقصة شد إلى رجلها
بسيور من فضة . ودار الخدم يصبون الشراب فى أكواب من بللور
صنعت على صورة زهرة اللوتس ، وسارت وراءهم فتاة أمسكت بيدها
صندوقاً صغيراً على صورة صندوق مومياء ظهرت تحت غطاءه موميائه ،
وجعلت الفتاة تكشف عنها كلما وقفت إلى مائدة فرغ الخدم من صب

الشراب في أكوابها للمحتسين .

قال الأشيب وقد لبس لباس الراهب :

- ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها إلى التفكير ! فما بال هذه المومياء تدور بها الغادة الفياضة بالحياة بين جمع مسرة وطرب ؟ وما لهم يذكرّون الناس وهم في ذرا نعمة الحياة بمصير الحياة المخيف المزعج ، بهذا الفناء فاغراً فاه يبتلع فيه إلى غير عودة كل من ألقى به يم الحياة إلى ناحيته ؟ ! أو ما كان خيراً لو أنهم تركوا ساعات المتاع القصيرة لا تشوبها صورة مريرة ؟

وسمع نجى أبيس سؤال الأشيب ، فأسرع إلى جوابه خيفة أن تظل حكمة الأجداد خافية على الحفدة ، أو أن يحسب أحد أنهم في كمال حضارتهم كانوا يعرفون الفرع أو يهابونه ، قال :

- إن أمر هذه المومياء لا يحتاج ممن عرف حياة السلف إلى تفكير ؛ فأبسط معانيها في مجلس شراب أنا صائرون إلى مثلها ، فلنغنم كل ما في الحياة من متاع قبل أن تنفذ الحياة ومتاعها فنكون كهذه المومياء رغبة عن المتاع وزهداً فيه وطمأنينة إلى خلد السكينة الأبدية . وهذا معنى تناوله الناس جميعاً في شعرهم ونثرهم ، وتناوله الندامي في أسمارهم . بل لقد أحسب أنه كان لا بد أن سيدور بخلدنا لو لم تنبها الصورة الفرعونية إليه .

« على أنى أرتاب في أن يكون هذا المعنى هو ما قصد إليه الفراعنة . ذلك بأن عقائدهم تنفر منه ، وتدلنا على أنهم كانوا يقصدون إلى خير من هذا الخاطر الذي يرد إلى أذهان أبناء اليوم . فهم كانوا لا يرون الموت آخر مراتب الحياة ، ولا يحسبون الإنسان يحرم متاع الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها . بل إنه ليجد في العالم الآخر مثل متاعه معنا أو خيراً منه ما بقى جسمه مصوناً من التحلل مستعداً لأن تعود إليه الروح الشقيقة . وهذا

سر تشييدهم المقابر كما نشيد نحن القصور ، وهو سر وضعهم أدوات المتاع في قصور القبور . أما الروح الشقيقة (الكا) أو الضعف على ما يسميه المؤرخون ، فتعود إلى المومياء التي حفظها التحنيط ، فتسمح لها أن تلذ بمتاع كمتاعها في الدنيا من غير حاجة إلى أكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع . وهى تبقى في خلدتها وتبقى أسباب نعمة الحياة إلى جانبها مستمتعة بها ما بقيت المومياء خالدة على الزمن . فليهل الناس في الحياة كل ورد النعيم ، فلن يزيدهم ذلك إلا إمعاناً في المتاع بهذا النعيم بعد الحياة .

قال الأشيب :

— حكمة بالغة وحق إيزيس . إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . ولم لا ؟ ألسنا دائماً نعيش على ميراث الماضي ، وغداً هو ابن اليوم ، ومشينا ذكرى شبابنا ؟ فليس إذن عجباً يوم نذر الحياة أن نظل نحياها وإن على صورة أخرى .

وبينا كان السقا يصبون الشراب وكان الأشيب ونجى أيبس يتحدثان كانت راعية هاتور في شغل بتنظيم ليلتها . استعانت بعدد قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كي يؤدوا طقوس عبادة إيزيس ، وأوحت إلى غيرهم من ضيوف الحفلة أن يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم في كل عملهم . واختفى الموسيقيون خلف ستار وبدءوا يوقعون أنغاماً أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا القصر ومن فيه واختفوا خلال عمد الكرنك يحيون فيه عبادة رع وآمون . فقد كانت بعيدة ، بعيدة ، هذه الأنغام ، وكانت تزداد حيناً بعداً ، ثم تقرب بعض الشيء لتعود فتبتعد من جديد . وكانت كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت في الصمت الذى مد رواقه على المكان مهابة ورهبة . وظلت في ابتعادها حتى امتلأت نفوس الحاضرين

جميعاً قداسة دينية . هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً مقرباً بذلك منا . وهنالك قام عديد من الحضور في صفين راهبات ورهباناً ، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة برهبة المكان ، وكانت بامتراج أصوات الجنسين مثيرة في النفس قداسة المعاني الإنسانية جميعاً وفي مقدمتها معاني الخصب والإنتاج .

وتقارب الصفان ، فإذا الأشيبي إلى جانب فاتنة سميراميس ، وإذا هو لذلك أشد إيماناً بإيزيس ورع وآلهة أشور وكل من كان له في معرفة الفاتنة إياه فضل . وتباعد الصفان وختمت التراتيل ، وتابعت الموسيقى أنغامها شجية في استسلام وحنان ، واندفعت راعية هاتور بين رهبانها راقصة رقصاً دينياً ، مقدساً هو أيضاً ، بدت قداسته على أتمها حين رفعت ذراعها فتشابكت أصابعها في دعاء واستغفار ، وخطرت في لجة لجين الضياء يستشف من خلال شفوف ثوبها قواماً لدنا يتثنى في موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطرة من خطراتها . وكان كافياً أن تقف الراقية لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين فلا يزداد إلا رشاقة وجمالاً . لكن خطراتها بين صنى الراهبات والرهبان على أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع إلى النفوس أقدم معاني العبادة والإذعان . وأولئك الفتيات اللواتي نفسن على الراقية سحرها في الرقص الفرعوني كن أكثر الحاضرين نهياً إياها بنظرات الإعجاب والإكبار ، أليس لكل امرأة ما تسحر به الرجال ؟ فلم لا تكبر كل امرأة في غيرها سحرها لتنال هي أيضاً من إكبار ما لديها ما يزيد الرجال سحراً وافتتاناً ! .

وبقينا في عبادتنا هذه زمناً ولت الراقية وجهها أثناءه صوب المعبد ، فإذا صوت ذلك العواد يرتفع منشداً في نغمة كنسية بنشيد إيزيس يختم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الخليل . وعاد الراهبان والراهبات إلى

موائدهم ، وعاد السقاة يصبون الشراب تتبعهم غادة المومياء ، واكتملت حلقتنا وحلقة أخواتنا السيدات والسادة عدا صديقنا الشاب الذى بلغ من عبادته مبلغ الذهول ، وأعلن على أثر انتهائها أن لا مقيم له من ذهوله إلا أن تباركه الراعية وتتلو عليه الأدعية والأوراد جميعاً . أما نجى أبيس فقد وجد فى الحفل الفرعونى المحيط به ما دفعه إلى أن يعود إلى الحديث عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ، قال :

— ها نحن أولاء نمثل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس فى ساعة متأخرة من الليل ، مع أن عباد إيزيس كانوا لا يعرفون سهراً ولا قصفاً . بل كانوا يذهبون إلى معبدها كل يوم لصلاة الفجر قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الإمام الأعظم رواقى الطلعة حليق الرأس والذقن مرتدياً ثوباً من التيل الأبيض بسيطاً كل البساطة . وكان هذا الإمام الأعظم يقضى حياته ناسكاً لاهم له إلا أن تظهر روحه بالعلم وبإدمان التفكير فى القدسيات وبتعليمها . وكانت أولى المراتب بعد الإمام مراتب الأنبياء المقربين إلى الآلهة المحدثين عنهم والمتحدثين إليهم . أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يعنوا بتأثيل الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المكونة من أقمشة نصفها أسود والنصف الآخر أبيض لامع ، للدلالة على أن ما نعرفه من أمر الآلهة يختلط فيه الضياء بالظلمات . وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثياباً أكثر بساطة من ثوب الإمام الأعظم ، تبقى بادية من خلالها أذرعهم وصدورهم ورءوسهم الحليقة . أما الراهبات فكان يلبسن معاطف تنعقد أطرافها على صدورهن كما صنعت راعية هاتور ، تحمل كل منهن فى إحدى يديها وعاء فيه الماء الطهور وفى الأخرى « السستر » آلة القدماء الموسيقية ، يهزونها ليوقظ صوته الكائنات من سباتها . فإذا جاء عباد إيزيس إلى قدسها

ووجبت الصلاة صعد الإمام الأعظم الدرج إلى تماثلها ، فأزاح عنه ستوره ، فظهرت باهرة في وقفها بما عليها من حلى الجوهر الوضاء ، تمسك بإحدى يديها مفتاح الحياة وبالأخرى الماء الطهور . وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويمسكون به على الأتقياء ، ثم يوقدون النار لتحرق ما في المكان من شر . فإذا طهر كل ما في المعبد دعا الإمام الأعظم الآلهة فلبت الدعاء . فقدم لها عبادها ما شاءوا من قرابين وضحايا .

« فإذا كان العصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة الثالثة هي صلاة ختام اليوم يسدل الإمام الأعظم على أثرها الستور على إيزيس لتطمئن في لباس الليل حتى صلاة الفجر .

« أما أعياد إيزيس فكانت تقام في أول الربيع وفي أول الخريف ، وكانت غاية في البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد الخريف من أيام أسى على مصرع أوزوريس . ففي الثالث عشر من نوفمبر (السابع عشر من شهر آتور أو هاتور الفرعوني) كان الرهبان يلبسون على رؤوسهم صور الطير والحيوان مما يعبد المصريون ، ويذهبون إلى معبد إيزيس فيمثلون أمام الشعب المأساة الإلهية الفاجعة ، يقهر فيها الشر الخير ، وتقوم على أثرها معركة إيزيس وهورس ونفتيس مع سخت ، تنتهي إلى بعث الخير من جديد دون أن يقهر الشر أو يقصى عن الأرض .

كان الخليل قد جاء إلى جمعنا يحيينا مستصحباً صديقنا الشاب معه حين كان نجي^١ أبيس في ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس . فلما سمع عبارة النجي الأخيرة أراد مشاركتنا في الحديث فقال :

— ما أكثر ما يفسرون به مدلولات الآلهة القدماء ! أفحق أن إيزيس وأوزوريس وجماعتهما كانوا الخير والشر والصلاح وما إلى ذلك من

صفات ؟ أم كان تيفون البحر ، وأوزوريس النيل ، وإيزيس الأرض وخصبها ، وهورس النبات الذى تمخض عنه ذلك الخصب ؟ وإن أصحاب هذه الرواية ليؤيدونها بأن مصر كانت فى الماضى يغمرها البحر حتى ما يزال يوجد فى جبالها ومناجمها أصداف وآثار حيوانات بحرية ، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه وبطميته البحر إلى الوراء فأخصب الأرض وأثمرها . أم لهذه الآلهة معان فلكية ، فتيفون هو الشمس المحرقة ، وأوزوريس هو القمر الرقيق المحسن ؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون إلى أن ضوء القمر مخصب يثمر الحيوان والأرض فى حين تحرق الشمس الحرث والنسل ، ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين إن البحر هو الذى أوقد للشمس نارها ولظاها ، حين تبعث مياه الينابيع والأنهر أغنياتها إلى القمر وضيائه . أم أن أوزوريس هو النهار ، وتيفون الليل ، وإيزيس القمر وهورس الشمس ؟ أم هذه كلها صفات الربوبية تجتمع للآلهة متعددين ، وهى بعض صفات الإله الأعلى ذى الجلال ؟!

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب :

- والأرباب جميعاً ! إني لعلى حق حين قلت لكم إن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان . فأرباب من الحيوان ؛ لأن فى الحيوان للناس خيراً ومتاعاً . وأرباب هم علم النصر وغلب الأعداء ؛ لأن فى النصر احتفاظاً بكل ما فى الحياة من نعمة وحرية . وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الأول على الحياة وأطوارها ، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح فى الحياة . وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن أجدادنا ثم آمن آباؤنا . واليوم وقد سخر الإنسان لنعمته غير الحيوان وراض من قوى الطبيعة الكهرباء والجو والأثير ، وراض هذه وغيرها من طريق العلم ، فهو يؤمن بالعلم وبها ، وهو فى مظاهر إيمانه جميعاً إنما

يبحث عن مكانة بين كل ما فى الوجود تحفظ عليه الحياة فى أنعم صورها المادية والذهنية والروحية . وليست سليقة الحيوان وفطرته فى الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذى يتناوله إيمان الإنسان . ذلك بأنه هو الآخر يريد الاحتفاظ بالحياة فى خير صورها . فمن الحق إذن أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان .

كانت فاتنة سميراميس قد ألفت السمع أول ما حدث نجى أبيس عن إيزيس وعبادتها وأعيادها . فلما رآته بعيداً عن مثل حديث سميراميس وجمالها ، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والإيمان ، شاحت عنا بوجهها ، كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقات لا تغنى . أحس الأشيْب انصرافها عنا فلم يشاركنا فى الحديث ولا أعارنا سمعه بل اندفع يهمس فى أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقة هذا الليل وجماله . فلما أتم الشاب حديثه كانت أكواب الشراب تطلب الساقى ليملاًها . فأشار إليه الأشيْب ، وسرعان ما حضر تتبعه غادة المومياء . فلما فاض الرغاء على حافات أكواب اللوتس قال الأشيْب :
- إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . فلتتبادل النخب من هذا الشراب الشهى ، ولنذكر إيزيس بوصفها جميلة يبهز جمالها أفئدة يطير بها الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الظريف ، ولا نضيع هذه الفرصة السعيدة فى قصص الأساطير وفلسفة الإيمان . وإذن هات يا نجى الآلهة حديث الجمال وسحره .

وكانت من الشاب أثناء حديث الأشيْب التفاتة فإذا راعية هاتور مقبلة ، فأسرع إليها وارتمى عند قدميها قائلاً :

- صدق صاحبنا الأشيْب . لا خير فى قصص الأساطير ولا فى فلسفة الإيمان ، وإنما الخير كل الخير فى الجمال وحديثه . وطلعتك ومشيتك وحديثك أدعيتك وكل ما ينبعث منك هو حديث الجمال ، بل هو أنغام

موسيقاه القدسية الساحرة . بالله يا نجى الآلهة إلا ما ذكرت لنا من أمر هاتور وجمالها ما يطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات الليلة فيزداد ضياء وإشراقاً . وحق عليك وأنت نجى العجل المقدس أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة .

قال النجى ملبياً دعوة الصاحبين جميعاً :

- لا تحسب يا صاح أن الرمز بالبقرة لهاتور معناه أن هاتور كانت بقرة بالفعل . وإنما كان ذلك رمزاً إلى أن هاتور كانت ربة الخصب كما كانت ككل ربات الخصب ربة الجمال . بل هى فى رأى أكثر المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة وصورة الطيبة . هى من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان ، وأفروديت عند اليونان ، وسميراميس عند آشور . وحجتهم فى هذا أن اسم هاتور معناه بيت هورس ، فهى إذن من هورس ما كانت إيزيس فى أمومتها له . بل إن بعض المؤرخين ليرون أن هاتور أقرب فى نسبها لآلهة السماء من إيزيس نفسها أن كان الجمال مصدر الخصب والخلق . ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فيراها أقدم الآلهة ومنبع الحياة ، بل يراها إلهة الطبيعة وكل ما فيها من صغير وكبير . لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها ، وكانوا يقرنونها إلى الآلهة جميعاً فى كل المعابد ، على أنها فى كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرتة ، اللدن قوامه ، الثابتة أردافه وسيقانه ، كما كانت إلهة الزينة والتحلّى . ولذلك كانت فى كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقاً هى أطواق الحب ، ولابسة من الحلّى عقوداً وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براعة وبهراً .

وأمسك النجى برهة ، فإذا الأشيب قد تحركت نفسه إلى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاى ، فقال :

— هاتور في مصر ، وأفروديت في الإغريق ، والزهرة في روما ، وسميراميس في آشور ، كل أولئك كن في الإنسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة . فهل خلق الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزاً؟ وهل مصدر لإلهام الشاعر ووحى المفكر وفن الفنان ولكل ما يأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة ؟ وبحسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جمالها كل ما سواه من صفاتها . وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها إلى جانب الخليل ، وكان صديقنا الشاب قد أخذ مكانه إلى جانبها والخليل معحق لذلك يكاد يتميز من الغيظ لولا حقوق ضيافة يجلبها ويرعاها . على أنه إذ رأى الشاب يدنو من الراحية يهمس في أذنها لم يملك إلا أن همس هو في أذنه :

— لا يملك الشراب يا صاح عليك لبك فيحسبك أصحابك مخموراً .
ونالت هذه الكلمة من أنفة الشاب ، فأراد ألا يلاحظ أحد على وجهه تغيراً ، فاندفع معقّباً على حديث الأشيّب :

— هاتور والزهرة وأفروديت وسميراميس كلها أسماء لمعنى واحد صاغ له خيال الأقدمين بدائع الأساطير . وإيزيس في مصر كانت هي عشتروت في فينيقية وقبرص ، وكانت هي سيرس في روما . وتوت المصرى هو المريخ اليوناني . هكذا أذكر أني سمعت . أوليس هذا دليلاً على اتفاق الناس في تصوير صلة ما بينهم وبين الوجود لاتفاقهم في طرائق النظر لما في الوجود ؟ بل لقد أحسب مما سمعت عن انتقال إيزيس إلى جبيل بالشام باحثاً عن جثة أوزوريس أن عبادة هذه الإلهة انتقلت معها إلى فينيقية وقبرص ، وأنها انتقلت من هناك إلى اليونان ثم إلى روما ؛ فكان هذا سبب تشابه الأساطير حول البحيرة الكبيرة التي أسموها بحر الروم ونسبها البحر الأبيض المتوسط . وإذا اختلف هذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر ، فما نحن أولاء اليوم لا نعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهام خيالية تحلو في

الشعر ولا ظل لها من الحقيقة . مع أنها كانت تمثل الحقيقة الثابتة في تلك العصور . أو لو بعث ميت من أبناء العصور الفرعونية الليلة وحضر مجلسنا هذا أترأه يشك في أن هذه الستور التي تمثل الكرنك وعمده وتماثيله إنما هي تماثيل وعمد من حجر ، وأنه في طيبة لا بين أحضان القاهرة ؛ وفي مكان هذه الأوهام التي كانت حقائق أهل تلك الأجيال أقمنا نحن حقائقنا لتكون أوهاماً عند أجيال تخلقنا . وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة ؛ لأن هذه الصورة هي التي تكفل طمأنينته في الوجود واحتفاظه بالحياة بين عناصر الوجود الدائمة التواني والتجدد . وإذا صح أن بقي شيء من الإيمان القديم لم يتغير - وهذا ما أشك أكبر الشك فيه - فلن يكون إلا ما يمس حياتنا المادية من طعام وشراب أو يمس آمالنا المبهمة في خلد هذه الحياة .

استراح الخليل إلى عود الشاب إلى فلسفته في الإيمان أن صرفته عن الراعية وصرفت عنه الجميلات جميعاً . ولم يعبأ الأشيب بهذه الفلسفة أن كان في شغل بأحاديث حلوة تافهة مع السيدات والسادة وبالمتاع أعمق المتاع بجمال، فاتنة سميراميس زادها لباس الراهبة براعة وسحراً . وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب السيدات والسادة إلى شرابه ، فأنساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير الشراب . ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف وألفت في حديث الأشيب الشهي ما ملق زينتها وجمالها ، زادت عليه عطفاً بأن زادت عليه دلاً . ولم يصغ إلى حديث الشاب إلا نجى أبيس . وإذا رأى فيه تجديفاً سببه عدم التعمق في إدراك حكمة الأقدمين قال :

- لا تصدق يا صاحبي بما تسمع عن كل هذا التطور في تصوير الإيمان ، ولا تحسب أن الناس انتقلوا في بضع ألوف السنين القليلة التي يعرفها التاريخ بمقدار ما رويت . فلو أنك عدت إلى فلسفة الأقدمين وقرنتها إلى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الإيمان والشك والإلحاد يعرفها حكماء الفراعنة والإغريق كما

يعرفها مفكرو اليوم وفلاسفته . ثم إنك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها أكثر مما تسمعه في أساطير الأقدمين وهماً وخيالا . وبين هذه المذاهب الفلسفية والأوهام المحسنة للسواد في حياته كانت الحقيقة وما تزال ، وإن كانت لا تسلم نفسها إلا لمن أخلص في البحث عنها حباً فيها وحرصاً على طمأنينة نفسه إليها . وأنت إذا رجعت إلى رأى حكماء الأقدمين من الفراعنة والآشوريين والإغريق والرومانيين رأيتهم جميعاً يقولون إن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون غاية حياة الحكيم . وكثيرون من المخلصين دلهم إلهامهم على هذه الحقيقة ، فأذاعوها في الناس منذ تلك العصور البعيدة ، ثم لم تغير مباحث العلم مما أذاعوا كثيراً ، وأحسب أن الناس ما داموا أناساً ومادامت أدواتهم في البحث هي حواسهم ، فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم وإن اتسع ميدانها ، وإن عرفوا من أسرارها ما كان معجزاً لهم .

كان أهل القصر الفرعوني بعد نشيد إيزيس قد اطمأنوا إلى مجالسهم ، وعكفوا على شرايبهم ، وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات ، وكنت لا تسمع لحديثهم أول المجلس إلا هسيساً لا تكاد تميزه . فلما دب ما احتسوا في أكواب اللوتس إلى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكات رقيقة محتشمة ، وتسمع نكات تتبادل بين مائدة ومائدة . وأدى هذا إلى زيادة في التعارف والتفاهم ، وإلى تقارب بين بعض الموائد وبعضها الآخر . وخشيت راعية هاتور أن يطول هذا ، فأومأت إلى الخليل فتركنا فتبعناه بنظراتنا ، فإذا به يهمس في أذن العواد ، وإذا بفرقة الموسيقى تختفي وراء الستور من جديد . ولفتت هذه الحركة الحاضرين ، فجعل كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للمنظر الثاني من مناظر الليلة الفرعونية ، وإن كان لا يعلم ما سيكون هذا المنظر ولا مادوره فيه إلا كما يعلم ما تخبئ الحياة من مفاجآت ، وإن كان في مفاجآت الحياة ما يفجع ، على حين كان الجمع ينتظر في مفاجآت هذه الليلة ما يلذ البصر والسمع .